د. محمد شوقي الزين

الفلسفة واليومي

الحصة الثالثة

العادي والاعتيادي في اليومي

العَادِي والاعْتِيَادِي

- نقول «اعتيادي» (mondain) للدلالة على ما هو عامّي وشبه مبتذل، ونقول «عادي» (ordinaire) على ما هو مألوف ودارج، مع تقاطعات بين المصطلحين إلى غاية انتفاء الحدود بينهما ودلالة أحدهما على الآخر.
- الاعتيادي في بساطته لا يعني دائماً الغثُّ والسَّاقط، بل هناك شيء نادر واستثنائي في الأمور التي تبدو لنا بسيطة وبلا قيمة، عبَّر عنه فرنسيسكو ديمتري بالعنوان التالي: «هذا معنى الخلّاب: كيف نقتنص المعجزات في الحياة اليومية؟».

- Francesco Dimitri, *That Sense of Wonder: How to Capture the Miracles of Everyday Life*, Head of Zeus, 2018.

- وراء كل مظهرٍ بسيط هناك شبكة معقَّدة ومتوارية تتطلَّب الكشف والإبانة أو تنبثق بذاتها في شكل حدثٍ خلّاب ومدهش. هذا ما يجعل اليومي صعب الضبط وفي غاية الالتباس: «يتميَّز اليومي بالالتباس وعدم الاستقرار والغموض».

- Ben Highmore, *Everyday Life and Cultural Theory*, London-New York, Routledge, 2002, p. 17.

مُشْكِلَة التَّحْوِيل

- العادي هو محاولة عقلنة الاعتيادي، أي تحويل ما هو عامِّي أو مبتذل إلى جادٍّ وذي قيمة ومعنى بالنسبة للإنسان. غير أن تحويل الروتيني إلى الاستثنائي ليس بالمهمَّة السَّهلة، لأن الأمر لا يتعلَّق بحجر الفلاسفة في تحويل الخسِّيس من المعادن إلى النَّفيس من اليواقيت.
- من هنا جاءت الصعوبة الفلسفية في تحديد طبيعة اليومي من جهة، وتتبُّع أثر العادي الذي غالباً ما يأتي في صورة البسيط أو المبتذل ويجعل العلاقة بين الفلسفة واليومي أكثر إشكالاً. تكمن الصعوبة إذاً في التَّفاوُت بين الخطاب العلمي والموضوع العلمي، بين المركَّب المفهومي والبسيط اليومي.
- يأتي سوء فهم طبيعة اليومي من حيث الخلط بين العادي والاعتيادي، إذ الأول ليس بالضَّرورة ساذجاً أو تافهاً ممَّا هو عليه الثاني.
- هناك دائماً المفاجأة التي تتخلَّل العادي وتُفجِّر فيه إمكانات وانزياحات تجعله يتميَّز عن الاعتيادي، وهناك كذلك الغرابة التي تجعل العادي مبهماً.

مُشْكِلَة التَّكْرَار

- من أصعب ما تواجهه الفلسفة في مقاربتها لليومي هو الانطباع بأن الأمور تتكرَّر، فتعود الأشياء نفسها. لكن ما يتكرَّر ليس جوهر الشيء، بل السِّمات التي تُغلِّف جوهره.
- تتكرَّر يومياً بعض الأفعال، لكن ليس بالصيغة عينها ولا في الظرف ذاته. هناك دائماً إزاحة وإن كانت طفيفة أو مجهرية، تجعل الأفعال لا تتطابق مع ذاتها بين السابق واللاحق.
- يُشير بيغو إلى أن العَوَد الأبدي للشيء عينه الذي خلَّده بعض الفلاسفة في أعمالهم على غرار نيتشه، لا يخصُّ في الواقع البُعد الميتافيزيقي والكوني، بل إن العَوَد الأبدي للشيء عينه هو حقيقة يومية: «إذا كان العَوَد الأبدي للشيء عينه يكتسب معنى وجودياً خارج الأساطير التي أعطته بُعداً كونياً، ففي قلب العالم اليومي يكتسب ذلك المعنى. لأن العالم الذي يعود هو العالم اليومي».
- B. Bégout, *La Découverte du quotidien*, p. 455.
- يفقد العَوَد الأبدي من حمولته الميتافيزيقية والمذهلة لينخرط في سياق عالمٍ عادي بكائناته وأزمنته. على أن التَّكرار الذي يُميِّز هذا العالم ليس من قبيل الرَّتابة المملَّة، لأنه ليس هويَّة ثابتة، بل هو تجدُّد في الحياة وإن لم يظهر للعين المجرَّدة على أنه تجدُّد فعلي.

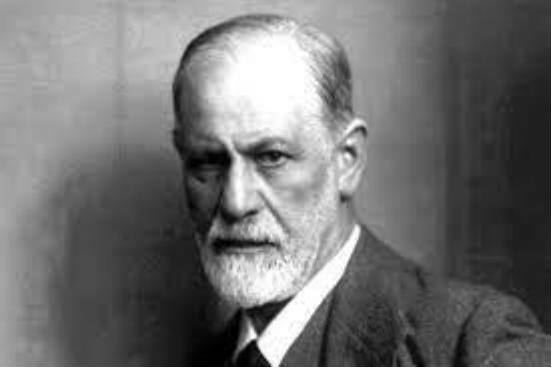

مُشْكِلَة المُقْلِق

- استعاد العديد من نُظَّار اليومي فكرة «الغرابة المقلقة» (Das Unheimliche, l’inquiétante étrangeté) التي قرأ بها سيغموند فرويد أسرار الحياة اليومية التي ينبثق فيها المذهل والعجيب وأحياناً المروِّع والمرعب فيما هي تُبدي العادي والبسيط والمألوف.
- ما يُسمِّيه إذاً فرويد في نص 1919 بالمقلق (l’angoissant) دون أن يكون القلق في حدِّ ذاته. يتَّضح ذلك في بعض الحالات التي تعرَّض فيها شخصٌ ما إلى حدث مُفزع. يعود هذا الحدث لينتابه من جديد في كل مرَّة يمرُّ فيها الشخص في المكان الذي حصل له فيه الحدث المفزع.
- هناك إذاً ذاكرة المكان التي تعود بانتظام، خصوصاً في الحالات المفزعة.
- الملاحظ أن في الكلمة الألمانية (Un[heim]lich) هناك الاسم (Heim) الذي يدل على معنيين: المسكن والسرّ. نقول (Heimat) وهو المسكن أو البيت، ونقول (Geheimnis) وهو السر.
- المسكن أو البيت هو إذاً العادي أو المألوف الذي نقيم فيه. لكن الكلمة (Unheimlich) هي نقيض ما هو مألوف أي الغريب والغامض الذي يُقلق بطبعه لأنه يتنافى مع ما نألفه في الحياة اليومية.

أَمْثِلَة عَن المقْلِق في اليَوْمي

- يُقدِّم فرويد في نص 1919 بعض الأمثلة عن الغرابة المقلقة في صُلب ما هو عادي أو مألوف: 1. الاعتقاد بأن تمثالاً يتحرَّك بحلول الرُّوح فيه، أي صيرورة الجمادات كائنات حيَّة؛ 2. الخلط بتحيَّة شخص في الشارع نظنُّ بأننا نعرفه أو التقيناه سابقاً، ونتذكَّر فجأةً أننا لا نعرفه ونشعر بالإزعاج؛ 3. الخشية من الظلام الذي يرتبط بأحوال الطفولة وكل ما يتعلَّق به من عفاريت وأرواح؛ 4. الشعور بالمضاعفة نتيجة مرحلة المرآة التي تفصل الأنا عن الآخر، لكن تجعل من الأنا «آخر» يغزو الأنا، نوعٌ من الفصامية التي تُنغِّص ألفة اليومي؛ 5. الانطباع بأن ما تمَّ رؤيته في الحلم تمَّ رؤيته في الواقع أو العكس بأن الواقع عبارة عن حلم وتبدو فيه الأشياء غريبة؛ 6. الإحساس بأن أموراً تقع الآن قد وقعت من قبل، بنفس الظروف ونفس الأشخاص.

المبْهَم في اليَوْمي وصُعُوبَة مَفْهَمَتِه

- من شأن التَّكرار اليومي للوضعيات أن يُخلط بينها في تشاكل أو التباس يجعل الزَّمن السابق يشبه الزَّمن اللاحق وكأن أطياف الماضي حلَّت بالحاضر أو أن أشباح السابقين تجوب فضاء الحاضرين.
- كل ما يلعب على الالتباس والغموض يصعب ضبطه مفهومياً ويمكن فهمه وتدوينه مجازياً. لذا، نُدرك كيف أن اليومي كان المجال الخصب لكل ما هو مجازي وفنِّي في الأدب والفن الروائي والسِّينمائي.
- أضحى من الممكن اقتناص غوامض اليومي في قوالب مفهومية تنتمي بحذافيرها إلى الفلسفة، لكنها قوالب غير بديهية ولا تزعم الوصول إلى بداهة الكشف عن حقيقة اليومي، وإنما فقط تتبُّع أثره في مختلف الممارسات اليومية.
- لأن اليومي يتعذَّر القبض عليه مفهومياً وإن كان بالإمكان إدراكه حدسياً. وضعه في قوالب مفهومية هو في الوقت نفسه صعوبة نظرية وعمل جبَّار، بحكم أن الفلسفة تريد أسر ما يفرُّ بطبعه من الأسر.
- تُعدُّ القوالب المفهومية بمنزلة الأسر النظري لحيوية العملي وسرعته على التحوُّل السَّريع. اليومي هو موطن الطفرات العملية والتحوُّلات القصدية.